رسائل الهاء المقدّسة

سامي البطاطي
@SamiAlbatati
٢٠١٧

إلى الهاء المقدّسة
-٣-

على غير عادتي عدتُ لأوراقك القديمة أقلّبها.
أو لأكون أكثر صدقاً، لم تكن العودة لأوراقك ورسائلك القديمة خلافاً لعادتي، فقد كنتُ أفعلها مراراً وكنتُ في كل مرة أقرؤها باللذة نفسها التي قرأتُ بها أول مرة، ولكن المختلف هذه المرة أني عدتُ لها بعين مختلفة، تحاول أن تقرأها ببصيرة العقل لا القلب!

هل كنتَ واهماً حينما كنتَ أرى الحب يسكن بين سطورها ويستتر خلف كلماتها؟!
هل عشتَ لفترة طويلة مخدوعاً بتفسير القلب لرسائلك البريئة من كل حب!

لا أخفيك أن استبدال عين العقل بعين القلب لم يكن سهلاً أبداً، ولا أدري حتى الآن إن كنتُ بالفعل قد استطعتُ أن أعيد قراءة رسائلك بعين العقل أم أنني ما زلتُ أعيش تحت خدعة القلب غير أن ما يجعلني أطمئن إلى حكم العقل -وهو ما يخيفني في نفس الوقت- ولا أود الوصول إلى نتيجته- أن رسائلك اختلفت من بعدها، حتى شككتُ أن تكون هي الرسائل نفسها التي كنتُ قد قرأتها وأعدتُ قراءتها ألف مرة!

هل أخطأتَ عدّ المرات التي قرأتَ فيها رسائلك؟
لربما كنتَ قد قرأتها ٩٩٩ مرة بطريقة خاطئة، وكانت قراءة العقل هي الألف الصحيحة على غرار ما حصل لأديسون!

لقد أدركتَ أنني كنتُ أقرؤك بمعجم القلب لا بمعجم العربية.
معجم القلب الذي كان يفسّر لي الإعجاب منك حباً، ويضع الثناء في مادة الرغبة.
كان يصوّر لي رموز القلب عشقاً، وأحاديثك الجانبية توداً، وكتابة اسمي تقرباً.
كانت كلماتك تخلق في نفسي عوالم!
لم أشأ تصديق ما توصلتَ إليه، غير أن تجاهلك للجزئين السابقين أكد لي صدق دعوى العقل وكذب دعوى القلب، وقد حذفتهما بعد إذ رأيتُ اسمك في قائمة من قرأها ثم .. "هجرها"!

سامي البطاطي

إلى الهاء المقدّسة

-٤-

نزل إشعار اسمك في رسالتك لي قبل قليل على قلبي وجسدي نزول الوحي الثقيل، فظهرت عليّ آثار الأنبياء والوحي يتنزّل عليهم، وكاد من حولي يفتتنون لولا خبر نبيهم أن لا نبي بعده، متجاهلين أن للحب أنبياء كما للسماء، وأن أنبياء السماء وحدهم من انقطعوا، وأما أنبياء الحب فما زالوا ما دامت القلوب تسكن أفندة الناس.

نزل عليّ إشعار رسالتك، فكان أول ما تلقّاه خفقان قلبي الذي لم يسكن واضطراب جوارحي التي لم تهدأ. وكانت الروح تصاعد حتى خشيت عليها مفارقة الجسد!

وما بين إشعار وحيك وقراءته تقاذفتني آلاف الصور والكلمات، شهباً تتنبأ خبرك!

وخلت حديد صدودك قد ذوّبته حرارة الوجد في رسائلي، لأتفاجأ بأن كانت تعليقاً خفيفاً على ما نشرتُه من اعتراف برداءة خطي الذي لا ينافسه سوى رداءة حظي معك، ولا فرق بينهما، فهي نقطة سافرت من حانها إلى طانها.

لم تكن حروفك البريئة هذه -إن كانت كذلك- لتمر سهلاً على أرضي المضطربة، لقد كانت كلماتها القليلة كافية لتشعل حرباً ضارمة في نفسي، بين معسكر العقل ومعسكر القلب. يرى القلبُ الحبَّ مستتراً خلفها مستحيياً، في حين يحكم عليها العقل بالبراءة. وما بين المعسكرين صوت آخر لم أعرف بعدُ إلى أي المعسكرين ينتمي، يرى فيها إدانتك بتعمّد نشوب الحرب وإشعال فتيلها التي يعجبك أن تستمر لأطول فترة ممكنة!

لقد هممتُ في خضم هذا المعترك أن أتجاهل رسالتك انتقاماً لرسائل الهاء المقدّسة التي اغتالها تجاهلك و"هجرك". أردتُ أن أعيد اعتبار ذاتي التي مازال صدودك ينخر منها. خرجتُ من رسالتك بعزم لم يلتقط نفسه الأول في الوجود حتى توقف عند اسمك ثم ... بقية القصة عندك!

سامي البطاطي

إلى الهاء المقدّسة

-٥-

هل أخطأتُ حينما أبديتُ لك نيتي في تجاهل الرد على رسالتك الأخيرة انتقاماً ضد " هجرك" لرسائلي السابقة فاستبقت الفعل وتجاهلت الإجابة عن سؤالي فيها؟!

أم أغضبك أن كتبتُ عنك بعدها مباشرة للناس، فساءك نشر خبرك؟!

لا أظنه قد ساءك هذا، ولكي أصدقك فإني أرتاب أحياناً في تعمدك هذا الصدود لاستدرار ما تبقى في داخلي من كلمات يمكن أن تُكتب فيك.

إن كان ما يمنعك عن إجابتي والالتفات لي ترقّب لحظة نفاد الكلمات من داخلي، فإن الكلمات فيك لا تنفد أبداً، فكلما مات حرف وُلد آخر!
لست وحدي المتلهف نحوك. حتى الحروف في داخلي تتسابق إليك لتحملك. في رقبتك آلاف الكلمات والحروف التي راحت ضحية الاقتتال في تدافعها نحوك.

فهل يعجبك هذا؟ إن كنت قد رضيت قتلي فما ذنب الكلمات البريئة إلا من الوقوع في حبك.
لقد بات حبك كأخاديد أصحاب البروج تأكل كل الواقعين فيها حتى أولئك البريئين من كل ذنب!

إن كلمة واحدة منك كافية لتوقف سيل هذه الدماء التي باتت تُسفك كل يوم بسببك. كلمة واحدة أو نصف كلمة أطمئن بها إلى وصول هذه الرسائل إليك. تطمئنني أن دماء الكلمات البريئة لم تُسفك هدراً!

سامي البطاطي

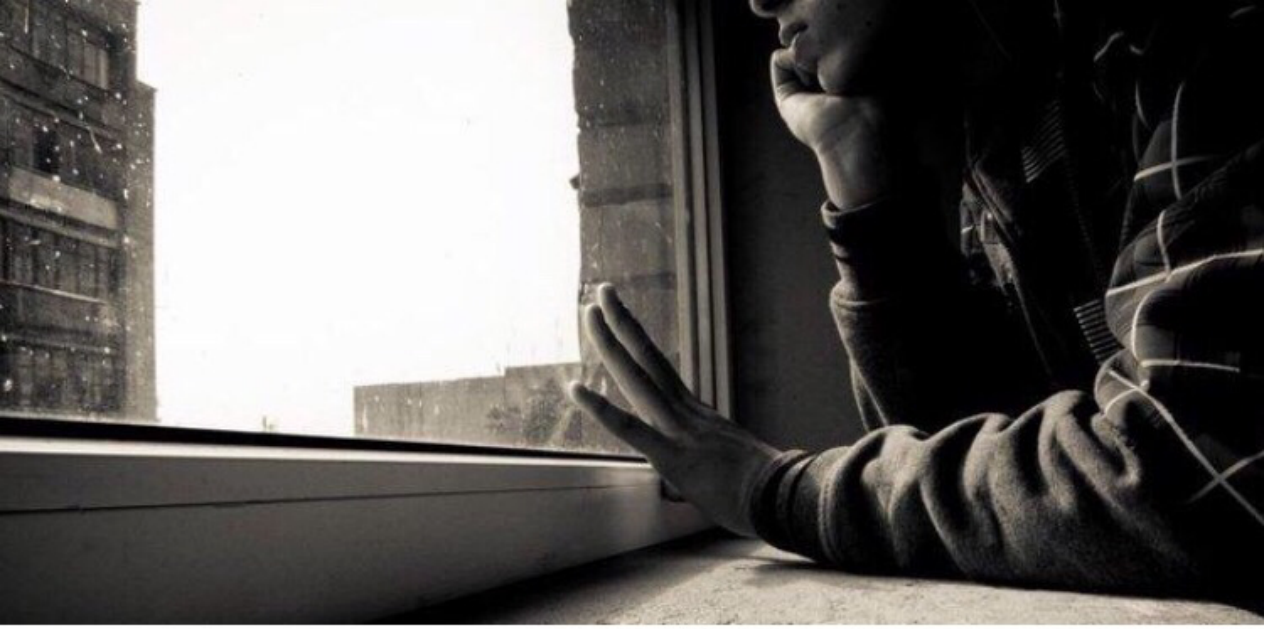

إلى الهاء المقدّسة

-٦-

ما أقسى صدودك وانتقامك، كلما اقتربتُ منك شبراً، تباعدت عني ذراعاً، حتى بلغ بك البُعد تجاهلني بكلّي فلم أرَ اسمك في قائمة المشاهدات على غير عادتك.

لم أكره كثرة المتابعين كما اليوم، حينما وجدتني مضطراً لأبحث عن اسمك بينهم في كل ساعة قبل أن يغرق اسمك بين أسمائهم ويصبح رقماً.

وفي كل مرة أكذب عيني الأولى، فأبحث عنك عند أختها ثم أكذبها هي الأخرى، فتجيبانني بالدمع قبل أن أدرك صدقهما.

قد كان ظهور اسمك يحيي بصيص أمل في نفسي وإن كانت لا مبالاتك تسعى لقتله، فما يبقي الأمل بعد إذ غاب حتى اسمك؟!
إنني لست متأكداً إن كنتُ ما زلتُ في قائمة متابَعاتك، أعيذك من قتلي وهجري!

الأسى أنني قد أكتب رسالتي هذه فتقرأها كل عين سوى عينيك لأنك... قد خرجت!

سامي البطاطي

إلى الهاء المقدّسة
-٧-

ما زال غيابك يريبني، وما زلتُ أتلمس الأعذار وأتشبث بأمل أن لا تكون رسائلي السابقة سبباً لهذا البعد.

قد كان يكفيني منك ظهور اسمك، لكنني طمعتُ بأكثر من ذلك فحُرمت حتى من اسمك. اسمك الذي كان يمر عليّ فيغسل الروح ويطهّر القلب ويسمو بالنفس إلى عوالم أخرى على حدود الجنة!

انقطاعك أعادني إلى رسالتك القديمة وإن كانت تتجدد في نفسي كل حين، حينما كتبت لي أنك شاهدت كل مقاطعي التي أرفعها على قناتي في اليوتيوب، وسألت: "أتدري ما أجمل مقطع أعجبني؟"
ثم ذكرت لي -بعدما درتُ بين مقاطع الكتب والفكر وجانبتُ الصواب- أنه مقطع تأملاتي في سورة الضحى!

لا أحصي كم مرة قمتُ فيها بإعادة مشاهدة المقطع بعدها، المقطع الذي استطاع أن يضعني في موقع إعجاب منك. ولستُ أخفي عليك أنه بات أحب المقاطع إليّ، بل .. بل.. باتت الضحى أحب سور القرآن إليّ!

ما صليتُ بالناس صلاة منذ ذلك الحين إلا وابتدأتُ بها. قد كانت السورة من قبلُ قريبة إلى قلبي، ولكنها صارت بعدك إلى قلبي أقرب. وصرتُ -وسامحني يا ربي على شرود ذهني- أستحضرك في كل مرة أقرؤها!

ولا أدري إن كانت مصادفة من القدر أن أعيش قصة الضحى معك اليوم!

لقد نزلت الضحى بعد انقطاع الوحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فضاق قلب النبي وبات يرقب السماء ينتظر آية من ربه أو نصف آية، والوساوس تتناوشه من نفسه وأعدائه بأن الله قد تركه أو أبغضه، لتنزل على قلب النبي بألطف عبارة رسالة من ربه "ما ودعك ربك وما قلى"!

كانت سورة الضحى في قلبي، فصرتُ أعيش السورة نفسها، يريبني انقطاع وحيك، والوساوس تتناوشني من نفسي ومن الناس. أرقب اسمك في المشاهدات، فهل تصلني منك آية "ما ودعك ربك وما قلى"؟!

سامي البطاطي

إلى الهاء المقدّسة
-٨-

لقد تحقق ما كنت أرجوه وأبحث عنه طيلة الرسائل الماضية، وتأكدتُ الآن أنك قد اطلعت على رسائلي السابقة وعلمت أني أقصدك بها، وأدركت المشاعر الظاهرة منها والمستترة.

اليوم لستُ أكتب إليك، لأني أعلم أن هذه الرسالة كأختيها الأخيرتين لن تصل إليك، ولكني أكتب للذين اصطحبونا في قراءتها وكان منهم المشفق والناصح والناقم ومنهم المبتهل لله أن يجمع بينك وبين رسائلي.

لقد استجاب الله لدعائي ودعائهم، فاطلعت عليها وعلمت على وجه اليقين أنك من أقصدك بها، ولكني نسيتُ ونسي المبتهلون معي حينما دعوا الله أن يسألونه تحقيقها في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، فكانت طريقتك في التعبير عن وصولها إليك هي حتفي الذي لم أتوقعه أبداً، وانقلبت عليّ رسائلي كما انقلبت على عبد بني الحسحاس قصيدته. لقد نجحت العملية ومات المريض!

قد كان آخر وأبعد ما أظنه منك هو خروجك، بيد أنك ارتأيت تعبيراً آخر، لا يدع للشك مجالاً في نفسي باطلاعك عليها، حينما اخترت التعبير عن اطلاعك وعلمك ... بحظري!

سامي البطاطي

إلى الهاء المقدّسة
-٩-

مذ خُلقت والكتابة أحب ما أمارسه في حياتي، لم يخنّي القلم يوماً. كثيراً ما كنت أجد فيه سلوى لتفريغ مشاعري والتعبير عنها، حتى أمنته على نفسي، فخان الأمانة والعهد وكتب نهاية صداقة كنت قد اعتززت بها وما زلتُ لذكراها.

لقد هوّن عليّ الكبير، وحقّر العظيم، وبرّر الجريمة، ليشبع شهوة إنجاب أكبر قدر ممكن من الحروف، ولو من رحم محرمة عليه!

أباح لي التعبير عن مشاعري نحوك ما دامت في حدود الصداقة، واستحب لي الإفصاح عنها كما أفصح عن مشاعري لسائر أصدقائي، وكنت خلفه في كل ما يأمر ويقول.

إنه لم يكذب عليّ، ولست أنكر المشاعر التي تكونت في نفسي منذ اللحظة الأولى التي التقيتك فيها حينما وقفت أمامنا وعرفت فيها بنفسك.

ولستُ ألام بما في القلب، ولكن بما أبدته الجوارح وكتبت. كان ينبغي أن تبقى المشاعر دماً يجري في القلب لا حبراً يجري على الورق. لقد كتبتُ نهايتي حينما جعلتك حبراً أكتب به حتى انسال من بين أصابعي فكتب نهايتي!

لقد أدركتُ أنني كنت أرتكب جرماً، وأنني حينما كنت أطالبك بالاستجابة فإنما أطالبك بمشاركتي جريمتي.
ووحدنا من يعلم لماذا كنت أواري وأكتب خلف الحجب والهاء المقدسة ولا أبعثها لك صريحة، السبب الذي لم أستطع الإجابة به لكل من كانوا يسألونني، حتى لا أغدو في أعينهم مجرماً!

غير أنى فى كل رسائلى السابقة، لم أسفف فى كلمة ولا وصف ولا أمنيات محرمة.
كانت رسائلي حباً خالصاً ومشاعر نفسية لا ترجو من ورائها شيئاً. ولم يكن سكوتي عنها كتماً لأمنيات موجودة منعني منها الحياء أو الخوف، ولكن حقيقةٌ بعدمها.

كنت أمارس الكتابة وهي أحب شيء إلي، والآن أمارسها وهي أبغض شيء إلي، إنني أكتب بنفس المحبرة التي فرقت بيننا وانسكبت على صورتي عندك فطمستها وسوّدتها!

سامي البطاطي

الرسالة الأخيرة
إلى الهاء المقدّسة
-١٠-

أكتب إلى روحك لأن رسائلي لم تعد تصل إلى عينيك. أصرخ باسمك في الناس فيسمعني كل أحد غيرك. تمنيتُ لو انتهى مداد الرسائل عند غير هذه النقطة.

حينما أمسكتُ بالقلم لأكتب الرسالة الأخيرة سقط القلم مني، أعدته بين أصابعي بحقد ممتلئ، هذا الذي أوردني الموارد، هذا الذي فرق بيننا. هممتُ بكسره، لكنني ارتأيت أن أمهله كلمة يكتبها قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه، شعرتُ بأنه يهم بالاعتذار، فرددته.

لن أعتذر، لم يعد للاعتذار معنى وسيف القصاص فوق رأس القاتل. لم يعد للاعتذار معنى حينما يخرج من ساحة الاختيار. لقد سبق السيف العذل، ولن يمحو الاعتذار ما مضى.

لم أكتب هذه الرسالة لأعتذر إليك، ولكني أكتبها لأشكرك.
لأشكرك لأنك حينما ساءتك رسائلي حفظت الود والمكانة -إن بقي فيها بقية عندك- ، فاخترت الخروج أو الحظر دون كلمة جارحة ولك الحق في كتابتها.

جئتُ لأشكرك على الدروس التي تعلمتها في حضورك وفي رحيلك. تمنيتُ لو اختارت الحياة غيرك لأتعلمها، ولكن الأقدار أرادت أن تكون الدروس بيد من لا يُنسى حتى لا تُنسى!

جئتُ لأشكرك لأنه لم تعد تعنيني صداقات الناس بعد إذ فقدت صداقتك، لم يبق للألم والوداع من بعدك سوى اسمه. ذهبت بالحقيقة وتركت لهم المجاز.

جئتُ لأشكرك لأنني افتقدتُ الدمع في حياتي طويلاً، وارتبت أمن دمٍ خلق قلبي أم حجر، فأعدت لقلبي الحياة ولعيني الماء.

حينما أردت أن أخادع نفســـي بأن رحيلك لم يحزنني، ســـقطت دمعة على حرف النفي فمحتها وأثبتت الحزن. والدمع أصدقاء أنباء من الكتب!

إنني لست حزيناً على رحيلك بقدر حزني على الطريقة التي رحلت بها، على مكانتي التي لربما كانت صرحاً من خيال فهوى.
كثيرون هم من غادرونا، خُلقت الحياة ليغادر منها أهلها، ما يهم هو كيف غادرونا وبأي وجه ودعونا، وبأي عين نظروا إلينا حين رحلوا.

بتُّ أهرب من واقعي إلى النوم لأنســـى أن كان مني ما كان، وكان منك ما وقع، فإذا اســـتيقظتُ وبدأت الذاكرة تســـتعيد آلامها، كانت أمنيتي الوحيدة أن تكون الآلام من بقايا الأحلام لا الواقع.

أشـــعر بالخواء كلما تذكرت أن كل شـــيء بيننا قد انتهى بهذه الصـــورة المأســـاوية، لقد خرجتُ بعشر رسائل أدبية ولكني في مقابلها خسرتك.

لم يعد باســـتطاعتي أن أبتدئك بتهنئة العيد كما كنتُ أفعل في كل مرة. لم يعد باســـتطاعتي أن أسألك عن أمور لا تعنيني أواري بها السؤال عن حالك والاطمئنان عليك.

أحيلك إلى قلبك الذي أثق به وإن كان هو خصمي اليوم، فإن دلّك على أني رجل خير وأن ما ظهر مني قد ظهر بحسن طوية ونية فذاك أنا، وإن دلك على أني رجل ســـوء وشـــر... فذاك أيضاً أنا! لم أعد أعرف حقيقتي. ما أعرفه على وجه الحقيقة واليقين أن قلباً يسري فيه دم النبوة فلن يدلكَ إلا إلى خير.
فإن غادرتني باسمك، فأرجو أن أغادرك باسمي.

سامي